كتب جديدة

العرب وتجربة المأساة

بقلم صدقي اسماعيل . دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣

هذا كتاب جديد في تفكيره واسلوبه. فالتفكير فيه رصين بعيد عن الانسياق وراء العاطفة التي تشوه الحقيقة ، والاسلوب فيه مركز بعيد عن التزاويق الشكلية التي تعودنا ان نكفن بها افكارنا.

والبحث ، اكثر من ان يكون تاريخياً ، يتبدى بحثاً نظرياً فلسفياً ، لان الكاتب ينظر اليه من خلال المذاهب الفلسفية متواترة متعاقبة . ولا شك ان هذه المذاهب الفلسفية اذا اتحدت نظرتها الى المأساة واعترفت بوجود المأساة ، فان نظرتها لا تكاد تتحد في الحكم على هذه المأساة . لان لكل مذهب نظرة خاصة مثلت دورها في الحياة والتاريخ الفلسفي . ولعل من صفات هذا البحث الملازمة له ان تغلب عليه الميتافيزيقية الغيبية ، لان مضامين البحث ليست كلها مما يسلم به العقل ويذعن له المنطق .

بعد ان يحلل المؤلف ما يريده من معنى المأساة الانسانية بصورة عامة ، والمأساة العربية بصورة خاصة ، ينطلق الى « تجربة المأساة » في فصول قصيرة تقص اشياء هذه التجربة وتحدد تأثير المأساة في حياة الانسان وتوجيه حضارته وسعيه نحو الانطلاق . ثم ينتقل الى تطبيق النظريات المأساوية المختلفة على الحياة العربية ، في عصورها المختلفة .

فيعطي في فصل المأساة في الحياة الجاهلية صورة عن العربي الجاهلي تحمل طابع العنفوان الجامح والاندفاع والتمرد والعنف الصارخ والتهور ، مما يجعل هذه التجربة قائمة على يقين مطلق يتيح للانسان ان يستجيب لنزعاته جميعاً دون تردد وارتياب . لكن هذه الصورة التي توارثناها من الادب الجاهلي والفكر الجاهلي لا تمثل الا الجانب الظاهري من الحياة عند المؤلف . لان الانسان في نظر الجاهلية كان نموذجاً مناقضاً لهذا المظهر العنيف . كان صورة للكائن الطبيعي الذي يعي مكانته في نظام العالم ، ويذعن للحياة دون ان يساوره القلق والرفض ، بل يجعل هذا الرضوخ لسنة الحياة هو الصفة المميزة للتجربة الجاهلية . ولذلك كان الجاهليون يحاولون مجابهة القدر بحلول شتى تنطوي جميعاً على الاستسلام . والحرب مثلاً كانت غاية لذاتها ، وذلك هو الجانب الفاجع ، لانها كانت بدون مبرر معقول .

ومن وراء هذه التجربة كان على الفرد ان يكون ضحية من اجل الحقيقة الاخلاقية . وقد تبدو هذه العنجهية الجاهلية مظهراً لاعنف مظاهر الحرية الفردية ، ولكنها في الواقع ابلغ صورة للاذعان ،

واستسلام مطلق لقدر غامض ، وصيحة مزمجرة امام المستحيل . ومن الحق اننا — برغم اعجابنا بهذه الحصيلة — لا نستطيع الا ان نرى فيها التأثير الميتافيزيقي غالباً على كل تأثير . ومثل هذا التأثير لا يستطيع ان ينفرد بالدراسة والحكم وحده على الاشياء والقيم ، فهنالك تأثيرات اخرى يستخدمها علماء التاريخ والمجتمع والنفس حين يدرسون شخصية امة من الامم .

واما المأساة والاسلام ، فتتبدل وجهتها عند المؤلف لان نظرة جديدة الى الحياة قد ولدت في الاسلام تختلف عن النظرة السابقة. وخلاصة نظرته ان الانسان — في نظر الاسلام - هو كائن مثقل بالفجوات الحزينة، لان مشكلته الرئيسية هي الموت، وحيث تعيش هذه المشكلة ينشأ الارتياب بقيمة الحياة ومعناها . ومع ان فكرة الموت تهيمن على آيات القرآن فان الموت ليس هو الفاجع في حياة الانسان ، ذلك لانه لا يحتم الاذعان والاستسلام ، بل يمكن ان يرفض . وبذلك ينطوي الاسلام على نوع من التمرد يمكن ان يعتبر رداً حاسماً على القدر الجاهلي . هذا الرد هو الخلود ، والله هو القدر الحق . والفاجع هو مصير الانسان في الابدية ، وعلى الانسان ان يذعن لما يمكن ان تقدره المشيئة الالهية دون ان يساوره الشك في عدالتها . هذا الامكان هو محور المأساة في التجربة الاسلامية. انه صورة صارخة للالتزام بالقدر الالهي الذي ترجع اليه جميع القيم .

وفي الحقيقة لا يعني الاقدمون بكلمة القدر الا الله، ولكنهم تحاشوا ان يسموا الشيء باسمه اجلالاً. وما اسناد الفاجع الى القدر الا باعتبار القدر — في تجربة الاسلام — عاملاً مؤثراً في حياة الانسان والامم . أليس هو الله يهدي ويضل؟ أليس هو الله الذي الهم النفس فجورها وتقواها ؟

وتأتي بعد ذلك تجربة الفلسفة الاسلامية التي يمثلها الغزالي وابن رشد ، وهي مجموعة تجارب — بالرغم من انطلاقها وتمردها حيناً — لبثت امينة للعقيدة الاسلامية وما تحمله من يقين. والشك الذي يتبدى لنا من خلالها هو شك لا يصل الى يقين يبني تجربة جديدة . ولعل ارتباط الفلسفة الاسلامية بالفلسفة اليونانية التي اقتبست منها من ناحية ، وبالعقيدة الاسلامية اليقينية التي تنتمي اليها، حال بين ما تريد الفلسفة الاسلامية او بين ما يريد العقل الفلسفي ان يقول بصراحة . وهذه الحيرة المبطنة بالغموض والالتباس بقيت مسيطرة على الفلسفة الاسلامية ، لا تجعلها امينة للعقيدة ولا للنقل المحض نفسه ولا للارادة التي تتفجر منها . ولذلك كانت الفلسفة الاسلامية تحاول ان تعزل نفسها عن جميع الفجوات التي تحمل ملامح المأساة وتلتزم بالموقف الانساني الحر . ومن هنا بدأ الانحدار .

اما التجربة في العصور الحديثة، « فالعرب فيها جماعات ممزقة تعيش في بيئات معزولة لا تربط بينها الا بقايا من التراث القومي القديم . والماضي يهيمن على جميع البيئات بشكل عفوي على الرغم من جميع النزعات الاقليمية العنيفة التي رافقت مظاهر اليقظة الوطنية . ومع ان الوعي القومي كان مضطرباً او مفقوداً فان الروح القومية كانت تهيمن على بنية المجتمع في كل قطر » .

وهذا حق مسلم به ، لان الروح القومية سابقة للوعي القومي . تلك تعتمد على الحنق والرفض والتمرد ، وهذا يعتمد على التخطيط والتصميم . ومرد هذه الروح القومية تلك الجذور المستقرة في الحياة العربية ، التي كانت ، وحدها ، تتمثل القيم التي يمكن ان يدور حولها وعي المأساة الجماهيري للقيم التي ادانها الواقع ، وكانت ادانتها صورة المأساة التي يعانيها الجميع. وفي هذه القيم تلوح جميع الملامح القومية . وما الذي تعنيه الحرية مثلاً في حياة شعب يريد ان يعود الى التاريخ الانساني ، وهو يحمل تراثاً بعيداً من الاعراف والتقاليد ووجهات النظر والمشاعر العامة يشترك فيها مع آخرين يقفون مثله على عتبة التاريخ ، ويكافحون

بالتراث نفسه لكي يستعيدوا جدارتهم في بنـــاء المصير ؟ ان الحرية في هذا المجال هي ما يمكن ان يسهم به جميع الذين يحملون مصيراً واحداً من اجل قضية الانسان . من ثم فان بعث الحرية كقيمة اساسية في حياة المجتمع مهما يكن ضيق الحدود هو دعوة مباشرة الى استعادة الكيان الواحد الذي يمثل الشرط الحضاري الاول لكل تحرر واع يحمل الطابع الانساني الحق .

ان في هذا الاستخراج وثبة فكرية رائعة تصور لنا قيمة الحرية في بناء كل مجتمع . ولكن نحن نجاهد في هذا المجال تجابهنا المأساة . لاننا نريد الانطلاق ونحن نحمل تراثاً قديماً قد تخلخلت قيمه بالنسبة الى تطور العصور ، وننشد حرية رائعة المظهر لا تذهب الى الاعماق ، لان للحرية مظاهر كثيرة تبدو في المجال السياسي والفكري والاجتماعي. ولعل مجتمعنا اضن الناس على نفسه بهذه الحرية التي تذهب الى الاعماق . فالقيم لا يكفي ان تكون مقدسة حتى تحترم ، والفكر لا يكفي ان يأخذ بهذه القيم حتى يطمئن وينزع عنه شكوكه . ان الفكر يريد ان يفتش بنفسه عن قيم تنسجم مع حريته ولو كانت هذه القيم مما لا يتلاءم مع التراث القديم .

ويخرج المؤلف على ضوء هذه الانطلاقـــات المتفجرة في حياتنا الى ان هنالك « حقيقة عربية» لا سبيل الى جحودها ، بالرغم من كل المحاولات الطائشة. وكل محاولة لطرح القضية القومية في اطار الشك بوجود حقيقة عربية انما هي من المحاولات العاتية التي يلجأ اليها الفكر عادة حين تعوزه الشجاعة على التصدي المباشر للواقع التاريخي . وبالرغم من جميع المبررات التي اتيح لها ان تصنع المشاعر « اللاقومية » فان هناك حقيقة راسخة تعيش في معزل عن جميع الافكار والنزعات ، هي ان التاريخ العربي ما يزال مستمراً ، وانه لا بد من احياء معاصرين يمثلون هذا التاريخ ، سواء كانوا شعباً واحداً او جماعات متباعدة او خليطاً من شتى الامم .

ان مأساة الحياة العربية هي انها لا تزال تزدحم بالمتناقضات ، فمن نزعـــة التفرد عند الحكام الى الايغال في الاستبداد والبطش ، ومن جانب الزهو العاطفي الذي تبعثه امجـــاد الماضي في النفوس الى التخفي بالمشاعر الدينية والرياء الاجتماعي ، ومن القيم الاخلاقية الضيقة الى العلاقات النفعية في اقسى صور التنازع على البقاء والعبودية المطلقة لمطـــالب المعيشة اليومية والخوف من الحاجة . كل هذا ، لم يمنع الحياة العربية او الروح العربيـــة ان تزدحم بالوان صاخبة من نزعات التحرر ، تعبر عن شيء من الوعي الشامل لجوانب الانهيار الراهن والقلق على المصير .

ويرى المؤلف ان من « مأساتنا الحاضرة » ان الفكر عندنا مشغول بمظاهر السلبية والاضطراب والتناقض، بينما الواقع وحده يقدم مواقف الايجابية والمبادهة والتصميم . وتلك عنده هي الظاهرة الغريبة في مأساة الحياة العربية المعاصرة. ولا ادري لماذا يجعلها ظاهرة غريبة ، وهي الظاهرة الطبيعية: لأن حالة كهذه الحالة لا يستطيع الفكر ان ينتهي فيها الى قرار، لانه يعالج مشاكل كثيرة على ميادين كثيرة . ومن حق الفكر ان تختلف اتجاهاته، بينما الواقع وحده يدفعنا الى ان نستقر. ومن هنا تبدأ هوة سحيقة بين ما يحياه الناس في الواقع الحي، وبين ما يتراءى للفكر من تصورات شتى في قضايا هـذا الواقع. ولكن الحق اننا لا نستطيع الآن ان نجيب ما دامت المعركة لم تنته .

ولا شك ان البحث كبير وشائك واوسع من ان يحتويه كتاب محدود ، ولذلك كانت الخطى فيه وثابة وكانت الاحكام سريعة تعتمد على شواهد محدودة اراده المؤلف ، وقد لا يجد المعارض كبير جهد في افتراض النقيض معتمداً على شواهد اخرى. والنظرة السلبية تغلب على الكتاب في عموض

المشكلة . واذا استطاعت هذه النظرة عرض المشكلة فان السؤال يبقى : ماذا يريد الكاتب ؟ هل وضع المشكلة واكتفى ؟ ما يجب ان يكون موقف الانسان العربي : أستسلام واذعان ، ام تمرد ، ام عبث وسخرية ؟ ما هي الحلول الواقعية للتجربة ، بعيداً عن الميتافيزيقية؟ ما هو المنفذ من المأساة؟ هل يكفي وعيها ان يكون نقطة الانطلاق منها ؟ ان هذه الاسئلة تبقى حائرة بدون جواب. ولكن هذه التجربة — برغم هذا كله — تبقى تجربة ضرورية للانتقال من الشك الى اليقين ، ومن عدم الاكتراث الى الشعور بالمسؤولية فالالتزام .

لا شك ان المأساة هي مأساة الانسان في الوجود وليست مأساة الانسان العربي وحده . واذا صح ان تكون هنالك مأساة العربي في القديم ، فان المأساة الآن مأساة الانسان ، بعد ان اصبحت الشعوب متواصلة والقيم مترابطة. واذا كان الانسان العربي هو الآن ضحية التمزق لانه يحاول ان يوفق بين ماضيه وحاضره ، فذلك لان الانسان في كل مكان ضحية هذا التمزق . وما كان لاية قيم اقليمية او تاريخية ان تنقذنا اذا لم تستمد هذه القيم قوتها وحرارتها من القيم الانسانية التي تحتم المصير الواحد للانسان .

خليل الهنداوي

هذا العصر المتفجّر

بقلم قسطنطين زريق . دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٣

تحت هذا العنوان الذي يثير فضول الكثيرين ، يعالج الدكتور قسطنطين زريق ، بالعبارة الصافية الهادئة، موضوعات متصلة بجوهر الانسان ومرتبطة بمصيره. والكتاب الذي قدم بعنوان موضوع واحد من موضوعاته ، من قبل تسمية الكل باسم البعض، صدر بمقدمة وضم الموضوعات التالية :

هذا العصر المتفجر، التراث الحضاري ، التبادل الحضاري بين الشرق والغرب ، دور الجامعة في الحياة الوطنية ، المجتمع العربي بين الامس واليوم ، مبادىء الانعاش الاجتماعي ، تفرغ الباحثين والمفكرين ، اداء الثمن .

اما كيف جمعت هذه الموضوعات المختلفة في كتاب واحد ، فالمؤلف يبرر ذلك بقوله : « ولئن كانت هذه الفصول تتناول مواضيع مختلفة ، قد انشئت كمقالات او القيت كمحاضرات في ظروف متفاوتة ، فاني ارجو ان يلمس القارىء فيها كلها ما تتضمن من عناية بالحاضر ، ومن تقدير لخطورة المرحلة الدقيقة التي نجوزها نحن وتجوزها الانسانية في هذا اليوم الفاصل من حياتنا ، بل من الحياة التي غدت واحدة للبشر اجمعين » .

هذا الاعتراف من المؤلف ، بتفاوت الظروف واختلاف الموضوعات، تثبته مطالعة الكتاب: لان مؤلفه لم يضع له تصميماً ، ولم يعالج موضوعاته وفاقاً لذلك التصميم؛ ولكن الكتاب ظل على الرغم من كل ذلك متماسك الاطراف ، لان الروح التي اوحت به تطالع القارىء في كل فصل من فصوله وفي كل سطر من سطوره .

من الصعب ان نلخص كل ما جاء في هذه المقالات والمحاضرات ، ولكن ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى اهم الافكار التي وردت في بعض فصول الكتاب. فقد تكلم المؤلف اول ما تكلم عن العصر المتفجر ، ويعني به هذا العصر الذي نعيش فيه

والذي تتفجر فيه القنابل الذرية ، ويجري فيه تفجر العلم والمعرفة وتفجر السكان، ويقع فيه التفجر على الظلم والمرض والجهل في سلسلة من التفجرات حتمت وضع الانسان على عتبة مستقبل رهيب ، لا يمكن ان يجابه الا بعقلية جديدة—هي العقلية التي تظل ناقصة بدون ضمير : « لانه لولا ثورة الضمير، لما انتشر دين ولا قام اصلاح ، ولما اعطت الحضارة بعضاً من افضل ثمارها واعزها وابقاها » .

هذه التفجرات التي اشار اليها المؤلف هي ، في الواقع ، من المشكلات التي تتطلب جهوداً متضافرة في الحقول التربوية والاجتماعية والحكومية والدولية، لانها مشكلات يرتبط بها مصير الانسان.

ويعرض المؤلف في حديثه عن التراث الحضاري لمشكلة الحضارة على انها اهم مشكلات هذا العصر المتفجر ، وارتباط التراث الحضاري بالتراث الانساني يجعل خلاصة ما بلغنا من مكاسب وتحقيقات سبيلا الى الحياة الفاضلة ، وهي الحياة المتحررة : تحرر الانسان من قيود الطبيعة ومن تحكم ابناء جنسه به ومن تسلط اطماعه عليه .

وهنا يشدد المؤلف على دور التربية والتعليم لعلاقة التراث الحضاري بمفهومهما. وما دام التراث الحضاري لا ينكشف الا لمن هو اهل للحضارة ، فقد وجب ان تنصرف جهود التربية الى تنمية شخصية الفرد . ولما كان التراث الحضاري كنزاً فقد احتاج الى امناء عليه ، والجامعة في طليعة الامناء على التراث الحضاري .

وقد شدد المؤلف ، في « التبادل الحضاري بين الشرق والغرب»، على وحدة المصير البشري كنتيجة لتفجر هذا العصر. وفي رأيه ان الفرق بين الشرق والغرب في الدرجة الحضارية ، لا في المنزلة المكانية؛ فالغرب لاخذه باسباب الحضارة الحديثة يختلف عن الشرق المتهيء للأخذ باسبابها . ولا يتم الحوار الحضاري بين الشرق والغرب الا باعادة النظر في القيم الحضارية عند الطرفين ؛ ومن هنا ايضاً اهمية الدور الذي تقوم به التربية في سبيل تحقيق هذه الغايات .

وفي « دور الجامعة في الحياة الوطنية» ، ينطلق المؤلف من مبدأ اعتبار الجامعة والحضارة صنوين متلازمين ، ويتكلم عن شروط الحياة الوطنية ، وحاجة تلك الحياة الى الاختصاصيين في مختلف المهن، ودور الجامعة في اعداد هؤلاء الاختصاصيين، ثم يتكلم عن مهمة الجامعة فيراها في طلب المعرفة للمعرفة.

ويشدد على الروح الجامعية التي هي قوام الجامعة. ويذكر الوطن، فيرى جوهره في قيم خلقية وعقلية وان هذه القيم لا تحصل الا بمراكز وخلايا تؤمن بها.

ولما كان تاريخ البلاد لا ينفصل عن فصل الجامعات ، كان ضرورياً طرح السؤال التالي : ما هو مقام الجامعة اللبنانية من اهتمام السلطات ؟ ثم ينهي البحث بقوله ان المسؤولية لا تقع على السلطات فحسب ، بل هي على عاتق الجامعيين ايضاً .

بهذه الطريقة المتزنة وبقدرة عجيبة على عرض القضايا المعقدة ببساطة ووضوح ، تعرض المؤلف للموضوعات الاخرى ، عنيت المجتمع العربي بين الأمس واليوم ، ومبادىء الأنعاش الاجتماعي ، وتفرغ الباحثين والمفكرين ، واداء الثمن ؛ حيث عولج كل موضوع من زاوية خاصة ، وعرضت فيه آراء جريئة تدور هنا ، كما دارت هناك ، على تمجيد العلم وتقدير العقل والدعوة الى العقلية العلمية وما تتحلى به من فضائل .

لقد اثار الدكتور قسطنطين زريق في كتابه « هذا العصر المتفجر » اهم المشكلات التي تعترض المفكرين والمسؤولين في لبنان وفي البلاد العربية ، وكان في اثارته لتلك المشكلات من العمق والاصالة وفي اسلوبه من الوضوح والدقة ما يجعل هذه الفصول، على قصرها، مرجعاً لا يستغني عنه آجلاً من يتصدى لمثل هذه الموضوعات من قريب او بعيد .

احمد مكي

فلسطين ومنطق السيادات السياسية

بقلم وليد الخالدي . دار الفجر الجديد ، بيروت ، ١٩٦٣

حين تصبح قضية فلسطين تجارة رابحة في اسواق السياسة العربية وستاراً يحتمي وراءه المنحرفون من السياسيين او متنفساً لشق انفعالات المرارة والكبت والاسى عند الكثرة من جماهيرنا العربية ، تظهر الضرورة الماسة لمعالجة القضية الفلسطينية باسلوب علمي يجمع بين دقة التحليل وعمقه وهدوء المنطق واتزانه والجرأة على تبيان الحقائق .

وحين يغفل العرب او اكثريتهم ، بما فيهم جزء كبير من العسكريين ، عن الخطر الحقيقي الكبير الجاثم في وطنهم مهدداً اياهم بالفناء ، ويتلهون بما يقل اهمية عن ذلك، تكون الحاجة اشد ما تكون لابراز اهمية ذلك الخطر والتنبيه الى خطورته .

وفي كتاب الاستاذ الخالدي استجابة لهاتين الضرورتين . فالكتاب، في اساسه ، معالجة للقضية الفلسطينية ، باسلوب علمي هادىء متزن مجرد عن اهواء العاطفة وبعيد عن جموحها وانفعالاتها . وبذلك يكون كتاب الاستاذ الخالدي من الكتب القليلة التي تحتكم الى العقل دون العاطفة في معالجة القضية الفلسطينية. والمؤلف لا يلتزم بهذا الاسلوب العلمي فحسب ، بل يشعر بضرورته ويدعونا اليه. ونجد هذه الدعوة خلال الدراسات التي تجمعها دفتا الكتاب . فالكتاب يبدأ بهذا المقطع :

« لعل اكثر ما نحتاج اليه عند بحث قضية فلسطين هو ما يمكن ان يسمى بالفكر التطبيقي ؛ والفكر التطبيقي هو الفكر الذي يجابه قضايا الساعة المادية الملحة بعيداً ما امكن عن السفسطة العقائدية والشعارات الدعائية المحضة محاولاً الجمع او اقامة التوازن بين الوسيلة والهدف » .

ويعاود المؤلف الرجوع الى هذه الفكرة فيكتب : « ومركز الوعي عند الاكثرية القلب دون الارادة ، وميزة عمل الاكثرية الانفعال وليس الفعل » . كما يؤكد ، وعن صواب ، بان « عدو العرب الاول هو الجهل » .

وبهذا الاسلوب البعيد عن التهويل العاطفي يبرز المؤلف الخطر الصهيوني ويصفه في ابعاده الحقيقية على الصعيد العسكري والعلمي والدبلوماسي. فعلى الصعيد العسكري ، من المنتظر ان تحصل اسرائيل على القنبلة الذرية بين عامي ١٩٦٦—١٩٦٨ ، كما يتيح نظام التجنيد الاسرائيلي ، الذي يفرض الخدمة الاجبارية على الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨و٤٩ عاماً مدة سنتين ونصف، وعلى الاناث اللواتي تتراوح اعمارهن بين ١٨ و ٣٠ مدة سنتين، يتيح هذا النظام استدعاء ثلاثمائة الف مجند ومجندة في اقل من اربع وعشرين ساعة . اما على الصعيد السياسي والدبلوماسي والدعاوي، فتشكل الجاليات اليهودية المنتشرة في انحاء العالم ، بما لها من نفوذ تجاري ومالي وتقدم علمي ، ادوات ضاغطة على الرأي العام العالمي وعلى الحكومات والمؤسسات الرسمية الاجنبية .

يتألف كتاب الاستاذ الخالدي من خمس دراسات نشرت الاولى منها في مجلة « الثقافة العربية » والاربع الباقية هي محاضرات القاها المؤلف في السنتين الماضيتين في النادي الثقافي العربي في بيروت.

وتحمل هذه الدراسات التي تتناول بعضاً من مظاهر القضية الفلسطينية العناوين التالية: « قضية فلسطين والفكر التطبيقي » ، « فلسطين ومنطق السيادات السياسية » ، « العوامل الخارجية في القضية الفلسطينية » ، « الوحدة العربية بين الحقيقة والمجاز » ، « استراتيجية اسرائيل » .

ولئن كانت الدراسات التي يشتمل عليها الكتاب منفصلة الواحدة منها عن الاخرى، الا ان القارىء يستطيع ان يجد بعض الافكار الرئيسية التي تظهر فيها جميعها او في معظمها . حسبنا الاشارة الى فكرتين اساسيتين . الفكرة الاولى هي ان قضية فلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم . ويوضح المؤلف ذلك بقوله: «لقد خرجت القضية عن اطار ثنائية بين الشعب الفلسطيني والجالية اليهودية في فلسطين ، واصبحت بعد ان بلغت اسرائيل من القوة مبلغاً تستطيع فيه تهديد اكثر من عاصمة عربية والقيام بازالة معالم جغرافية ازلية في المنطقة قضية ثنائية بين اسرائيل وكافة العوامل التي تساندها وبين اقصى ما يمكن للشعب العربي باسره ان يعبىء من قوة وجهد » .

وهذا رأي مصيب بلا جدال . فاذا كان من الضروري وضع الفلسطينيين امام مسؤولياتهم للمعركة القادمة ، كذلك يجب وضع العرب جميعاً امام مسؤولياتهم — فالخطر يتهدد الجميع على حد سواء .

اما الفكرة الرئيسية الثانية التي تتردد بين طيات الكتاب اكثر من مرة فهي فكرة الوحدة وعلاقتها المباشرة بحل القضية الفلسطينية . ويرى المؤلف ، وعن حق، ان الوحدة العربية لا تفرضها ضرورات قومية واقتصادية فحسب ، بل يفرضها كذلك وجود الخطر الصهيوني مهدداً العرب اجمعين . فاسرائيل كانت قد طبقت في حربها مع الدول العربية عام ١٩٤٨ ما يسميه المؤلف بسياسة استفراد الدول العربية ، دولة فدولة . فهي قد استفردت بمصر في الثقب بينما تأكدت من هدوء الجبهات الاخرى ، ثم استفردت جيش الانقاذ في الجليل بعد ان تأكدت كذلك من عدم تحرك جبهات القتال الباقية . وهكذا يحتم الوضع العسكري العربي تجاه اسرائيل قيام الوحدة بين الدول المحيطة بها او على الاقل قيام وحدة عسكرية وثيقة متماسكة بين هاتيك الدول .

وبعد ، فان الاستاذ الخالدي ، بابرازه معالم الخطر الصهيوني، يشعر القارىء العربي بمسؤولياته. ولا يجوز ان تبقى دولة عربية واحدة تتحمل القسط الاكبر من تبعات محاربة الخطر الصهيوني . فعلى العرب، كل العرب، ان يشعروا بما قد يكون اعظم مسؤولية قد القيت على عاتقهم في تاريخهم الحديث والقديم — مسؤولية الاستعداد والتعبئة لمعركة استرداد الوطن السليب .

صلاح الدباغ

حول مقالات سابقة

وردنا من الاستاذ كمال سنو (بيروت) ، تعليقاً على فقرة وردت في مقال « في قلق المثقفين العرب» للاستاذ مجدي وهبه (« حوار » ٤) ، ان العبارة الاخيرة في الحديث النبوي المقتبس : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله الى ما يرضي رسول الله» يجب ان تكون في الواقع كما يلي : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله » .

وطلب الينا الاستاذ مدثر عبدالرحيم (مانشستر) ان نشير الى ان النقاش الذي دار بينه وبين الاستاذ ميشال غريب في عددنا السابع كان في اصله اكثر اسهاباً وتفصيلاً وان بعض فقراته قد اقتطعت منه.

القصّة القصيرة في لبنان

« سفينة حنان الى القمر » ، بقلم ليلى بعلبكي . المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٣ .

عندما نذكر ليلى بعلبكي نذكر كتابها الاول « انا احيا ». ذلك ان نفحة، بل صفحة جديدة من الادب الروائي العربي ، قد فتحت بهذا الكتاب .

وجاءت بعده رواية « الآلهة الممسوخة » ، التي تشكل بعداً آخر من ابعاد فن ليلى بعلبكي ، ثم الآن « سفينة حنان الى القمر » ، مجموعتها القصصية الاخيرة التي اتخذت عنواناً لها اسم احدى قصصها (ظهرت اولاً في « حوار » ٤) .

نواجه في هذا الكتاب شخصية ليلى بعلبكي بالمكونات الاساسية نفسها التي برزت في «انا احيا» مع تقدم محسوس في الناحية الشعرية والتصويرية في الاسلوب وبلوغ نقطة النضج في الازمة المصيرية اللازمة التي تحياها المؤلفة .

محور «مشكلة» ليلى بعلبكي – اذا جاز التعبير – هو علاقة المرأة الشرقية بالرجل ومصير شخصيتها وحريتها ضمن الاطار الاجتماعي والاخلاقي الراهن. لكن هذه المشكلة التي يمكننا نعتها بالمشكلة «العامة» تنزل من عموميتها ومن نطاقها الفكري المجرد وتتجسد في شخصية منفردة باحاسيسها ، منفردة في معايشة الكون الخارجي ، صاخبة العلاقة ، زاخرة بالدرامائية مع كل نقطة تماس مع الاقران ، مع المناخ الخارجي ، مع حياة كل شيء في هذا الكون الذي تكمن فيه روح متميزة وغاية شر او خير ، وقبح او جمال .

لذا نرى تشابك خطوط شخصية ليلى بعلبكي مجسدة في نوع من جدلية الاضداد الموجودة في المجتمع بل في الفرد ذاته وفي كل لوحة من لوحات الطبيعة المتقلبة الطقس والفصول .

في قصص « سفينة حنان الى القمر» توقف عند احداث داخلية تعتمل في نفس المؤلفة ، والتفيات الى الذات بشاكلها المأساوية ، بمحاولاتها الارادية للانفلات ، للتفجر . ونرى في الوقت نفسه ان المؤلفة قد جمعت بين هذا المسرح الداخلي العاصف او المستكين وبين المسرح الخارجي الذي يلتقي فيه او يبتعد ، يتآلف او يتنافر ، ينسي او يثير كل هذا الدفق من الحياة المنشطر الى تيارين : تيار يأس والم وتيار تفاؤل وغبطة .

جدلية اللذة والالم لونت تلك الصفحات القصصية التي تعيشها المؤلفة والتي تجذب بسحرها وواقميتها القارىء .

عنصر المفاجأة في تلك القصص انها لا تكاد تطرح الحالة النفسية ، التي تنبع كالشرر من كل عنصر من عناصر النفس او الغير او الكون الخارجي، الا وقد تبلورت من خلال هذا الوصف، الذي يبدو وكأنه لا غاية له الا الوصف ، مشكلة ذات غور يبكي وذات وجه يأبى الا التفاؤل والمعاندة وارادة صنع الكون من جديد لتجديد معناه ، (وفي ادنى الحالات للمحافظة على معنى للحياة) .

لا بد لهذا الانتقال السريع ، من العفوية في تسجيل كل شاردة تمر الى غور الحالة المأساتية في صميمها ، من خلق نوع من المجابهة الدائمة بين مصير داخلي يتأزم وبين حركة ومظاهر خارجية فيها الكثير من الابتعاد اللامبالي بهذا المصير او التلاقي المر القاسي احياناً الى درجة وحشية محطمة للمعنويات .

قصة هذه المجابهة المتنوعة الفصول تذكرنا بصراع « الشيخ والبحر » لهمنغوي وبما يرمز اليه هذا الصراع من ملاحقة الحلم الكبير الذي تتناهشه حيتان البحار ويتناهشه الواقع اليومي المبتذل في قصص ليلى بعلبكي .

اما وان الاديبة قد القت اضواء ، باسلوبها العصبي ، الحسي ، الملون ، التصويري والشعري معاً ، على حدود المشكلة ؛ اما وان قصتها تنتقل معها بالسفر ، بالمغامرة الليلية ، وتلازمها حين تنظر الى ضباب ومشهد طبيعي جميل ، او حين تقشعر لمصادفة وجه من الوجوه ، او تسبر غور واقع مبتذل بنظرة او لقطة سريعة ؛ فيمكننا ان نقول انها محور قصصها ومركز اللغز فيها .

نشاطر الكاتبة ونحن نقرأها احساسها الداخلي وطريقة تخيلها وتقييمها لكل شاردة وواردة في هذا الكون ؛ نحيا معها بطريقة صاخبة غريبتها او تلاقيها الصارخ مع الكون ؛ نستطيع ان نقول دائماً بعد قراءتها ، وكأن شيئاً في احساسنا ووعينا للكون قد تغير ، اننا « نحيا » : اي نبتعد عن عالم الفكر المجرد ، عالم « الكتابة » و « الادب » والصنعة المزيفة . « سفينة حنان الى القمر » هو من الادب الحي .

هاني ابي صالح

« الساعة والانسان » ، بقلم سميرة عزام . المؤسسة الاهلية ، بيروت ، ١٩٦٣
« يبقى البحر والسماء » ، بقلم نور سلمان . المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٣
« الارض القديمة » ، بقلم يوسف حبشي الاشقر . المطبعة المخلصية ، صيدا ، ١٩٦٢
« اعصاب من نار » ، بقلم جورج شامي . دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٣

هل صحيح ان حركة النقد في لبنان ، والى حد اكبر في الوطن العربي ، مشلولة ، قاصرة ، عاجزة عن اللحاق بغزارة النتاج الادبي الذي يغمر الاسواق عند بدء الموسم الادبي كل سنة ، وبيروت مركز النشر الاول ؟

ان السؤال ، اصلاً في رأيي ، ليس مطروحاً وليس وارداً ، بقدر ما هو صيحة يطلقها الادباء في كل مكان عندما لا يجدون من يلتف حول نتاجهم ويغمرهم بسيل من المقالات التي تمجد ما انتجته قرائحهم ، او لا يجدون من يشير الى ما تلفظه المطابع كل شهر من كتب؛ فيتهمون النقاد بالتقصير، او يتهمون النقاد بحب التهديم ، ويتهمون النقاد بالعجز الفني ، وان الناقد هو اصلاً كاتب فاشل .

ان السؤال المطروح فعلاً ، هو هل هناك نتاج ادبي يستحق ان تلتف حوله حركة نقدية صحيحة؟ ان الادب الجيد هو الذي يخلق الناقد الجيد ، وان الفن الاصيل هو الذي يرغم الناقد بان يكون مسؤولاً وان يكون تقييمه صحيحاً وحكمه عادلاً ومنصفاً .

وفي مثل هذا الوقت من كل سنة ، تفيض الاسواق بعشرات الكتب التي تصدر عن دور نشر لبنانية وعربية ، صار من اسبابها في السنوات الاخيرة جوائز جمعية اصدقاء الكتاب في لبنان ، وفي خارج لبنان تقليد قديم يعود الى افتتاح المدارس وانصراف الناس الى القراءة في مثل هذه هذه الفترة من كل سنة . فهل من بين هذه الكتب

العديدة ما يسهل مهمة الناقد في الوصول الى حكم حقيقي ، او تحقيق مهمته على اصولها ؟

وهل يمكن للناقد ان يحقق مهمتـــه دون ان يكون هناك عمل فني صحيح ؟ ان من الضروري للفنان الاصيل ان يمسك ويسيطر ويحول التجربة الى فكرة، والفكرة الى تعبير، والتعبير الى مادة، والمادة الى شكل . ان التفـاعل العاطفي ليس كل شيء بالنسبة للفنان ، فعلى الفنان ان يجيد مختلف جوانب صناعته وان يستمتع بهـا ، ويعرف كافة قوانينها واشكالها وتقاليدها ، حتى يستطيع ان يروض موضوعه داخل اطـــاره الفني . فالتمزق والعاطفة الاصليـة تخدم الفنـان الحقيقي ، ولكن الفنان لا يستفزه الوحش ، انمـا يروض الوحش . والفنان مروض للفكرة ، يخرجها من ضبابيتها الى ايجابية الحقيقة ؛ فاللعب الحقيقي في الفن دليـــل التملك من وسائل التعبير والسيطرة عليها .

فهل من بين اصحاب النتاج الجديد في لبنان من يملك السيطرة الكاملة على وسائل التعبير ومن يجيد صناعة الفن الحقيقية ويلم بمختلف جوانبها ؟

ولنبدأ بمجموعة قصص سميرة عزام « الساعة والانسان » التي فازت بنصف جائزة جمعية اصدقاء الكتاب للقصة القصيرة لهذه السنة . فسميرة عزام لم تعد كاتبة ناشئة ، والمسافة التي قطعتها بين كتابها الاول « اشياء صغيرة » و « الساعة والانسان » ، كتابها الرابع ، اخـذت حوالي العشر سنوات ؛ لم يحس بها القارىء مطلقاً ، ولم تتقـدم بسميرة عزام ولا خطوة واحدة . فهذا الكتاب الصغير المؤلف من ثماني قصص عادية الطول ، وست قصص قصيرة جداً جمعتها تحت عنوان « قصيرة... قصيرة » كان من الافضل ان لا تنشر، كتاب عادي لا جديـــد في المواضيع المطروحة فيه . فالشخصيات عادية ، والوجوه مألوفة ، والامكنة مطروقة ، والظروف اصبحت ظروفاً قديمة في عالم متغير سريع .

وسميرة عزام ، بالرغم من قدرتها على البنـــاء القصصي الجيد، ورسم الظلال والاعتناء بالجزئيات في اشخاصها ، لا تشعرك بانها امرأة. فلا هوس نسوي عندها ، ولا لمسات انوثية، ولا شخصيات او صور او مواضيع منتقاة من تجارب او مشاهدات امرأة. فهي على عكس ليلى بعلبكي في مجموعتها القصصيـة الاخيرة « سفينة حنان الى القمر » ، حيث تحس ان وجودها كامرأة هو اهم ما عندهـا ، وتعكس هذا الوجود الى داخل تجاربها الفنيـــة ، فتعطيك تمزق المرأة الحقيقي ، وتوتر الفنان ، بكل ابعاده الشعرية. وسميرة عزام تفتقد الرؤى الشعرية والحس الشعري في كل قصصها ، وتفتقد الزخم الانثوي ، غير مستفيدة منه .

وبالرغم من السرد القصصي المتين عند المؤلفة ، واعتمادها على الرموز في كثير من الحالات ، تجدانها تقتل هذه الرموز حيث تفتعل مأساوية معينة ، كما في حالة موت الرجل في قصة «الساعة والانسان»، بينما تجد في قصة « طير الرخ في شهربان » انها غنية بالرمز والتركيز الفني الواضح وبالسرد القصصي الذي اصبح اسلوباً .

اما نور سلمان فتجد ان ما قدمته في مجموعتهـا « يبقى البحر والسماء » ، هي قصص قصيرة بعيدة كل البعد في سردها وسبكها وصياغتها واسلوبها عما يتوقعه الناس في القصة القصيرة التقليدية ومفاهيمها المتفق عليها . فنور سلمان كاتبـة اسلوب في القصة القصيرة ، كما هي كاتبة اسلوب في المقالة .

ونور سلمان تكتب الكلمة من اجل الكلمـــة نفسها ، لا من اجل ان تؤدي معنى او تتوصل الى نتيجة ، حتى وان كانت بلا معنى او دون نتيجة. الكلمة عندهـــا اداة من ادوات الترف اللفظي او الزينة اللغوية ، المهم فيهـــا ان تأتي جميلة اللفظ ، موسيقية المعنى ، خفيفة الجرس. فنور سلمان كاتبة كلمة مترفة . والمقارنة مع ليلى بعلبكي لا بد ان ترد من جديد : فليلى بعلبكي تستعمل الكلمة بتمامـل وتستعملها بنزق كأداة تعبير وجودي ، لا يهمها لفظها او جرسها او وقعها ؛ يهمها ان تؤدي مهمـة معينة ، وان تخترق كل الاستار والحجب . الكلمة

عند ليلى بعلبكي، بعكسها عند نور سلمان ، وسيلة وليست غاية بحد ذاتها .

وجاءت قصص «يبقى البحر والسماء» محاولات في تجميد الفكرة الساذجة ، مفتقرة في اكثرها الى الحادثة ، التي هي اساس القصة القصيرة . ولكنها قصص تلاعبت فيها اصابع فنانة مسالة ، واضحة الشخصية ، مميزة المعالم ، تهوى الترف اللفظي الذي يشفع له دائماً جديته واصالته وتكريسه .

ويوسف حبشي الاشقر ، صاحب « الارض القديمة » الكتاب الذي فاز بالنصف الآخر من جائزة جمعية اصدقاء الكتاب للقصة القصيرة ، يكرس من جديد حكاية القرية اللبنانية التقليدية المستنفدة. فالمجموعة مؤلفة من اربع قصص طوال تدور حول نفس الاطار وفي نفس الجو . القرية نفسها لا تتغير، والشخصيات لا تتبدل ، ومشاكلها لا تحل . فهي الحكاية المحكاة والمعادة والمستنفدة الف مرة ومرة .

فراحيل وبو جرجي وانطون وابو روز هي الوجوه المهزوزة التي يقدمها ، وحكاية الاغتراب القديمة المملة ، واسطورة خطيب الضيعة ، وجنون بائع الكشة في افريقيا ، وهوس الفران الكهل ، هي اهم الملامات الفارقة في قصصه. فيوسف حبشي الاشقر لا يجيد الحديث الا عن لبنان ـ القرية الذي انتهى ، لبنان المعزول عن كل تيار انساني يقلق الانسان المعاصر اليوم ، لبنان ـ المدينة ، لبنان الحقيقي . فنحس انه في واد ، والعالم في واد آخر .

وصاحب « الارض القديمة » كاتب يطيل التحدث في الجزئيات والتفاصيل التي لا تؤثر في سياق القصة القصيرة ، بل تضعفها وتتناقض مع اسس بنيانها . وابعاده ابعاد لا تصل ابعد من فرن الضيعة ، او من تينة الجار ، او نبع الساحة ، او مشمشة ابن العم . ولا بد من ان تكون في قصصه عبر ومواعظ اخلاقية، تصلح لكتب قراءة للتلامذة المدارس الثانوية اكثر مما تصلح لكتاب ينال جائزة.

جورج شامي يقف في « اعصاب من نار» فوق هؤلاء القصاصين الثلاثة ، كفاءة وفناً وفهماً للتكنيك القصصي وابعاده الانسانية الحقيقية. ولولا شيئان في مجموعته (مقدمة انسي الحاج التي لا مبرر لها ولا طعم ولا رائحة، وقصة «خطوات على الماء») لكانت قصصاً كاملة وفي منتهى النجاح .

عند جورج شامي معين هائل من السخرية والعنف والتحدي. السوداوية والقرف تلازمه دائماً في رؤيته البعيدة لحقيقة احساس الفنان الاصيل بعملية الخلق الصعبة، وبالوجوه البشرية التي تعيش معه وتعاني من عقد الحياة كلها . وجورج شامي انسان معاصر ، عرف كيف يكتب عن العالم الحديث المخنوق بالخوف والكراهية ، يقذف بانفعالاته في وجه الكل . انه من القلائل ـ مع زكريا تامر ـ الذين يكتبون قصة قصيرة حديثة .

فقصتا «دور في المعركة» و «اعصاب من نار»، وهما في رأيي من انجح واهم قصص المجموعة ، يبلغ فيهما الفن القصصي ذروته وتبلغ الهاوية الانسانية عمقها . اللغة فيهما حسية ، نافرة، عصبية ، قلقة . والبناء القصصي السليم والابعاد التكنيكية تكاد تكون مكتملة الشكل . فجورج شامي انسان ساذج ، يعكس سذاجته في شخصية المرأة التي تبدو بوضوح في « اعصاب من نار » ، ويبدو معها تلهفه عليها ، كما تبدو بوضوح آخر في « دور في المعركة » ، وتبدو معها عودته الى طفولته في أنوثتها . فهو يعرف كيف يتلاعب بالصور والظلال والشخصيات ، وفوق كل هذا يعرف كيف يصور الحس الحقيقي للأنسان المعاصر .

وجورج شامي ، وحده ، من دونهم كلهم ، يحق له أن يطرح سؤال البحث عن نقد صحيح ، ويجد ان مهمة الناقد هي في السعي المشترك للوصول الى حكم حقيقي . فهو يعرف كيف يروض الفكرة ويسيطر عليها ويطلقها .

رياض نجيب الريس